عثرات ما بعد الاستعمار: أسباب ذاتية، وأخرى "غربية"

بقلم: برتران بادي *

في كتابي الصادر أخيراً والموسوم بعنوان "حين يعيد الجنوب ابتكار العالم" (لا ديكوفيرت)، أتناول بالتحليل العلاقات الدولية في عصر العولمة، ومصادر العنف والنزاع في عالمنا هذا، وأسلط الضوء على ما خلفه تفويت الفرص التي سنحت إثر العودة عن الاستعمار، من أثر سلبي وسام في العلاقات الدولية. ورسخ الاستعمار وعملية العودة عنه النظام القديم في العلاقات الدولية، وهو نظام يتحدر من معاهدة "فيستفاليا" المبرمة في ١٦٤٨. واحتكم العالم الغربي إلى المعاهدة هذه في تدبير شؤون العالم وتنظيمه تنظيماً قائماً على رجحان ثقل وسلطان الدول- الأمم. ويبدو أن شاغلنا الهوسي هو افتراض أن الأمور على ما كانت عليه، ويقدم الغرب العولمة على أنها ابتكار القوى الغربية العظيم المحبة للتكنولوجيا والعقلانية والمبادئ الجامعة العامة.

ولكن الغربيين ليسوا وحدهم في العالم، وهم أقلية على المستوى السكاني، وانحسر دورهم في الوقوف وراء حوادث العالم وتراجعت قدرتهم على أداء دور الفاعلين في العالم، وتنظيم شؤونه (العالم). ولذا، تمس الحاجة إلى احتساب الآخرين ورؤاهم في تفسير حوادث العالم من إخفاقات وعنف. والعودة عن الاستعمار جلت على صورة خادعة. فاستقلال هذه البلدان وإنشائها دولاً افترض دخولها في مجتمع دولي متساو ومتجانس، في وقت أن الدول هذه ليست دولاً فعلية ولا مستقلة بعد. فالعودة عن الاستعمار دارت على رتق العلاقات وليس على تحول أو تغير فعلي.

وحين أنشئت "الأمم المتحدة" في ١٩٤٥، كان عدد الدول المنضوية فيها لا يزيد على ٥١ دولة، كلها تقريباً من دول الشمال (شمال المعمورة). واليوم، عدد الدول المنضوية فيها ١٩٣ دولة، الشطر الراجح منها هي دول جنوبية. ولكن رغم غلبة دول الجنوب عليها، الدول الغربية الخمس نفسها هي التي تملك حق النقض في مجلس الأمن، وهي التي تسعى إلى قول الكلمة الفصل في المسائل الدولية، سواء فعلت هذا في مجموعة الدول السبع أو في "مجموعات الاتصال" الدولية. وقدمت مرحلة نزع الاستعمار على أنها مرحلة انتقالية، أي مرحلة انضمام "مبتدئين" إلى النادي الفيستفالي (نسبة إلى معاهدة فيستفاليا ١٦٤٨ في ختام حرب ثلاثين عاماً على الحرب بين الكاثوليك والبروتستانت). ولكن شطراً كبيراً من المنتسبين الجدد إلى الأمم المتحدة لم يكن "مبتدئاً"، بل صاحب ذاكرة سياسية مديدة ويتحدر من حضارة أقدم من الحضارة الأوروبية. فباشرت هذه الشعوب الحياة الدولية على أسوأ وجه، وفي أكثر السياقات غير المؤاتية. واليوم، ندفع ثمن ما تقدم.

ووراء إخفاق العودة عن الاستعمار عدد من العوامل، أولها إنكار ذاكرة هذه الشعوب التاريخية، وهي شعوب كانت تسعى إلى الانعتاق من هيمنة الاستعمار. ولم يكن في محله افتراض أن اندراج هذه الدول "المبتدئة" في سياق تاريخ لا تنتمي إليه، سيرفعها إلى مرتبة "الرشد". وسرعان ما تبين أن أشكال التنظيم السياسي المتحدرة من نزع الاستعمار لا تلائم جبه تحديات العالم الفعلي. وخير دليل على ذلك هو اليوم انهيار أو إخفاق دول في العقود الأخيرة في أفريقيا وخارجها: في أفغانستان واليمن وليبيا والصومال... وعوض السعي إلى عالم جديد، تعلقنا بفكرة المرحلة الانتقالية والتزام موقف سالب وانتظار آثار النمو، وتمني أن تحمل الأيام المقبلة الأفضل!

ولم تُشرك الدول الجديدة في حكم العالم وتوجيه دفته، وهي اكتفت بدور المحتج، عوض المشاركة في إدارة العالم الجديد. وبدأ دورها الاحتجاجي مع مؤتمر باندونغ في ١٩٥٥، وتبلور دورها أكثر في حركة دول عدم الانحياز، ثم في ميثاق الجزائر ومجموعة الـ٧٧ (تحالف دول ناشئة في الأمم المتحدة للدفاع عن مصالحها). وعلى المنوال هذا، أبصر النور ما سميناه في الأمس العالم الثالث وما نسميه، اليوم، دول الجنوب. ولجأت هذه الدول إثر استبعادها من الحكم الدولي، إلى دبلوماسية جديدة قوامها الاحتجاج والخطابة. ولم تقترح الدول هذه إنشاء أشكال تنظيم سياسي جديد ولم تندمج فعلياً في المجتمع الدولي.

وارتكب الغرب خطأ اعتبار القادة المولودين من رحم نزع الاستعمار رجال دولة، في وقت كانوا رجال تحرير فحسب. والتباين بين دور باني الدولة ودور المحرر شاسع، ويترتب على كل منهما سمات مختلفة. ورجح دور المحرر من الاستعمار رمزياً في حركات مثل حركات الوحدة الأفريقية، والوحدة الأسيوية والوحدة العربية... فالغاية من هذه الحركات هي صوغ يوتوبيا تحرر وتحرير، وليس بناء دولة- أمة.

وبعض قادة التحرر كانوا ساسة كبار، ومنهم نكروما الغاني، ونهرو الهندي، وسوكارنو الإندونيسي وغيرهم. ولكن هؤلاء لم يشاؤوا أن يكونوا مشيدي دول. ففي غانا، قال نكروما: إن السعي إلى إنشاء دولة على أنقاض الاستعمار هو فخ، ومغامرة في الوقوع في شباك القوات المستعمرة السابقة. والدول المصطنعة المولودة من العودة عن الاستعمار كانت أدوات إرساء نظام نيو- كولونيالي. وبعض رجال التحرر اضطر إلى الصدوع بهذا النظام، وانزلق إلى الاستبداد والعنف، فطعنوا في ما أنجزوه: التحرر. وتتعذر اليوم الإشادة بأحمد سيكو توري (أول رئيس غاني) بعد مآل حكمه إلى ديكتاتورية.

وخطاب رجال التحرر هؤلاء رمى إلى وحدة إقليمية أو قارية. فعلى سبيل المثل، كان نكروما قبل كل شيء من أنصار الوحدة الأفريقية. ومنظمة الوحدة الأفريقية- وهي صارت مذ ذاك الاتحاد الأفريقي- ولدت في ١٩٦٣، ولكنها إلى اليوم، لم تحقق حلم نكروما، ولا تزال منظمة تعنى بما بين الدول، ولم ترتقِ إلى مصاف منظمة قارية. والفخ الذي دار كلام نكروما عنه لم يتغير في العقود التي تلت. فعلى سبيل المثل، كان نيلسون منديلا رجل تحرير عظيم، ولكنه عجز عن إرساء مؤسسات دولة جنوب- أفريقية فعلية. فالغاية من نزع الاستعمار لم تُبلغ لأن التحرر كان شكلياً.

وفي عدد من الحوادث التاريخية، تتزامن ديناميتان، كل منهما نقيض الأخرى إلى حد كبير. فإلى الاحتيال والاستهتار والاستعمال الذرائعي، غلبت كفة السذاجة في بعض الأوقات. وكان بعضهم في الغرب صدوقاً في اعتبار مرحلة نزع الاستعمار على أنها مرحلة مراهقة. ولكن المرحلة هذه لا تطعن في طابع النموذج الغربي الجامع والعام. وسرعان ما أدركت قوى الاستعمار السابقة أن في وسعها الاستفادة من ضعف الجنوب، الذي يقع خارج أراضيها وخارج حكمها وثرواتها، وأنها، عليه، في حل من مقاربة السياسة على ما تفعل في بلادها. فنفخت في ضعف الجنوب، وهو ضعف عظيم ينوء العالم اليوم تحت ثقله. وسعت هذه الدول الجديدة إلى الإتكاء إلى ضعفها، والبحث فيه عن موارد قوة للنهوض والتوثب. فصار ضعفها نفسه قوة تخريب وأذى وإضرار، ومورد دالة سياسية في عالم معولم، وهو عالم تربط الوشائج بين اللاعبين فيه. فالضعيف يعتمد على القوي، وهذا بدوره يعتمد على الضعيف كذلك. وما علينا إلا إلقاء نظرة إلى الخريطة الدولية لنلاحظ أن ميادين المعارك كلها تقع في الجنوب. فالحوادث الكبرى التي تقولب الحياة الدولية تتحدر من مكامن الضعف حيث يصبح القوي عاجزاً، فلا يسعه إلا الرد على الفوضى، وهو مشاهد متلق لها.

والعولمة طارئة على التاريخ، فعمرها يقتصر على ٥٠ عاماً. وهي لا شك ولدت سياقات مفيدة، وسمحت بتقدم تقني وإنساني. ولكن في غياب حوكمة عادلة، الوضع على شفير الانفجار السياسي. فهوة التباين تتسع. وفي الأمس، لم يكن الفقير يرى الثري، ولكن اليوم لا مفر من رؤية الفقير العالم كله. وتتسع حيازة الخليوي في أفريقيا اتساعاً مطرداً. وعليه، نعيش في مرحلة عولمة الخيال عولمةً تعصى التصديق. والفقير اليوم يدرك تمام الإدراك حاله قياساً إلى الأثرياء. ولا مفر من أن يخلف هذا كله ارتدادات غير مسبوقة، وتماهيات جديدة هي مصدر تنازع ضخم. وحريّ بنا احتساب هذه التوترات الجديدة عوض اللجوء إلى بدائل مثل الأعمال الخيرية أو التنميط.

عن "ليبراسيون" الفرنسية

* أستاذ في (سيانس بو).

أميركا تحت التهديد.. الداخلي

بقلم: ليزا موناكو* وكِن وينشتاين**

في ظرف أسبوع واحد، عاشت بلادنا موجة من الهجمات التي تحركها الكراهية: قتل أميركيين أفريقيين في متجر في كينتاكي، ومحاولات الاغتيال باستخدام طرود ناسفة، والقتل الجماعي في كنيس بمدينة بيتسبرغ. هذه الهجمات تُظهر على نحو مأساوي أن الإرهاب الداخلي آخذ بالازدياد في وقت يدفع فيه الاستقطاب السياسي، وغرف الصدى الملأى بالكراهية على وسائل التواصل الاجتماعي الناس إلى التطرف. وبينما نؤبن أولئك الذين سقطوا في كنتاكي وبيتسبرغ، علينا أن نعترف بأن مثل هذه المآسي تسلط الضوء على فراغ خطير في محاربة الإرهاب ما فتئ يتفاقم مع مرور الوقت، التركيز غير الكافي من قبل الحكومة الفدرالية على تهديد الإرهاب الداخلي.

في أعقاب هجمات ١١ أيلول٢٠٠١ الإرهابية، طوّرت الحكومة جهاز محاربة الإرهاب الحالي، والذي كان ناجحاً إلى حد كبير في الحؤول دون تنفيذ هجمات ضد بلدنا، غير أن التهديدات التي نواجهها الآن ستأتي على الأرجح من أفراد متطرفين وعنيفين هنا في الوطن. وعلى غرار حالنا عقب ١١ أيلول، رداً على الإرهاب الأجنبي، فإننا في حاجة إلى مقاربة إستراتيجية لهذا التحدي الأمني الداخلي.

وفي هذا الإطار، ينبغي على البيت الأبيض أولاً تطوير جهود منسقة بين الوكالات تركز على التطرف الداخلي. وتتمثل الخطوة الأولى في إعادة منصب مستشار الأمن الداخلي في البيت الأبيض إلى وضعه الأصلي. فمثلما كان مصمَّماً له في أعقاب ١١ أيلول، فإن هذا المنصب كان يخضع لسلطة الرئيس مباشرة وكان يتمتع بسلطات مهمة من أجل التنسيق مع المسؤولين من مستوى أعضاء في الإدارة قصد مواجهة كل التهديدات الأمنية الداخلية. ولكن استعادة التنسيق والقيادة الضروريتين في البيت الأبيض لا تكفيان، إذ يجب على الإدارة أيضاً أن تضع التركيز المناسب على التهديدات الحالية. وفي هذا الصدد، ينبغي عليها البدء بإعادة التمويل الأساسي للبرامج التي تحارب التطرف العنيف بكل أشكاله – بما في ذلك التطرف اليميني. فهذا التمويل تراجع خلال العامين الماضيين، والمخصصات المرصودة للمنظمات التي تركز على عنف اليمين المتطرف والعنصريين البيض سُحبت من ميزانيات الإدارة. والحال أننا نحتاج لمزيد من التركيز على التطرف الداخلي – وليس أقل، وعلى أسبابه، وعلى ما تستطيع أجهزة فرض القانون ومجتمعنا فعله من أجل تحديد مكانه ومنعه.

وعلينا أيضاً أن ندرك دور التكنولوجيا في نشر التهديد الداخلي وتأجيجه. إذ مثلما اختطف تنظيم "داعش" منصات التواصل الاجتماعي لدفع الناس إلى التطرف عبر العالم، فإن بعض الأشخاص من أصحاب التظلمات الداخلية يستغلون المنصات لنشر الكراهية هنا في الولايات المتحدة. ولهذا، يتعين على الحكومة الفيدرالية التعاون والعمل عن قرب مع شركات التواصل الاجتماعي، التي خطت خطوات مهمة على طريق محاربة وإزالة محتوى التنظيمات الإسلامية المتطرفة من على منصاتها، وتشجيعها على القيام بالشيء نفسه مع المحتوى المتطرف الداخلي.

وأخيراً، على الإدارة أن تحرص على أن يكون لدى الفريق المعني بالإرهاب الداخلي في وزارة العدل – الذي أنشئ بعد تفجير أوكلاهوما سيتي عام ١٩٩٥ وأعيد تنشيطه في ٢٠١٤ – الإمكانيات والموارد التي يحتاجها لتنسيق عمل المحققين وممثلي الادعاء العام عبر البلاد. هذا الفريق أثبت فعاليته، حيث أرسل رسالة واضحة مفادها أن العنف الذي تحركه دوافع أيديولوجية سيقابَل بعدالة سريعة. باختصار، ينبغي على الإدارة أن تحذو حذو الحكومة البريطانية، التي صنفت اليمين المتطرف مؤخراً باعتباره تهديداً رئيساً للأمن الوطني، وأقرت عمليات محاربة الإرهاب من أجل مواجهة ذاك التهديد على نحو أفضل.

عن "واشنطن بوست"

* مستشارة أوباما للأمن الداخلي ومحاربة الإرهاب.

** مستشار سابق لبوش الابن للأمن الداخلي ومحاربة الإرهاب.

عالم ثلاثي القطبية؟ ربما!

عبد المنعم سعيد*

لم تنشب لا الحرب العالمية الأولى ولا الثانية فجأة، ولا انتهت الحرب الباردة دون موعد، ولا أصبحت الولايات المتحدة القوة العظمى الوحيدة في العالم من قبيل الصدفة، أو نتيجة انهيار الاتحاد السوفياتي فقط، ولا حتى كانت أحداث الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ التي وضعت نهاية للحقبة الأميركية في الدنيا مجرد نوع من الكوابيس.

في كل هذه الأحداث الفارقة في التاريخ كانت هناك مقدمات، وشواهد، وعلامات، اختار الجميع من مراقبين وساسة تجاهلها إما لأن لهم مصلحة في الأمر الواقع، أو لأن حركة الأقدار تسير مسيرتها دون إذن من أحد. السؤال الآن هو ما شكل المفاجأة القادمة في العالم والتي تختمر عناصرها الآن؟ في الأسبوع الأخير من شهر أيلول الماضي نشرت في هذا المقام مقالا أبحث فيه عن المفاجأة القادمة في الشرق الأوسط؛ الآن فإن المهمة أكثر تعقيدا لأن البحث هو عن المفاجأة في العالم! الماركسيون يبحثون عادة عن مفتاح التغيير القادم في "تطور قوى الإنتاج"، ولا يوجد توافق بين العلماء (في التكنولوجيا أو في السياسة) أكثر من أن الدنيا على أبواب قفزة جديدة في تطبيقات "الذكاء الاصطناعي" أو AI، وإذا كان الحال كذلك فإن العالم في طريقه إلى أن يكون ثنائي القطبية مرة أخرى، ليس بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي كما كان في السابق، وإنما بين الولايات المتحدة والصين، فالأولى رائدة بالفعل في هذا المجال، أما الثانية فإنها وضعت موارد طائلة لكي تقود العالم في هذا الذكاء خلال عقد قادم.

علماء السياسة يبحثون عن المفاجأة القادمة في حركة التحالفات الدولية، لأن رصد حالة "القطبية" العالمية لا يكفي وحده في تحديد طبيعة النظام الدولي. وفي هذا الصدد هناك ثلاثة أحداث تحتاج لرصد نتائجها ليس فقط لأهميتها في حد ذاتها، وإنما لأنها تعكس البحث عن تحولات جديدة تخرج عما هو قائم من أوضاع. وحتى لا يكون الأمر لغزا فإن أول ما يلفت النظر الزيارة المهمة التي قام بها رئيس الوزراء الياباني شينو آبي للصين والاجتماع بقائدها شاي جينبينغ رغم التاريخ الدامي بين البلدين أثناء الحرب العالمية الثانية، والخلافات الإستراتيجية المتعلقة بالجزر المتنازع عليها بينهما، وبينما لا تزال الحرب التجارية بين الولايات المتحدة والصين مستعرة، وتتصاعد حدتها بين البلدين. في ١٤ تشرين الأول جرى الاجتماع الرابع عشر لمنتدى طوكيو- بكين تحت عنوان "دور اليابان والصين في دفع السلام والتعاون والتنمية في آسيا: الأهمية المعاصرة لمعاهدة السلام والصداقة الصينية - اليابانية". ما بين لقاء القادة، واجتماع المنتدى، فإن المشهد الصيني الياباني، وتركيزه على التعامل مع القضايا الآسيوية في غياب الولايات المتحدة وربما رغما عنها لافت للنظر سوف نعود له بعد قليل.

ما يلفت النظر ثانياً أنه وبينما يجري ما سبق في شرق آسيا، فإن أوروبا شهدت اقتراباً ملموساً بين ألمانيا وروسيا حينما اجتمعت كلتاهما مع تركيا وفرنسا لتسوية الأزمة السورية. لاحظ هنا أن الاجتماع جرى إقليمياً دون حضور الحكومة السورية صاحبة موضوع الأزمة، كما جرى دون حضور إيران ذات النفوذ القوي بالسلاح والمال والمخابرات في سورية وجيرانها العراق ولبنان؛ ولكن الأكثر أهمية من زاوية العالم كله، فهو الغياب الكامل للولايات المتحدة الأميركية عن معالجة أزمة شاركت في إدارتها ولا تزال بالدبلوماسية والسلاح، ولكن إدارة الأزمة هذه المرة، سواء من حيث معالجة ما تبقى منها في إدلب، أو لتحديد مسار مستقبلها، أصبح في يد الدول الأربع. ورغم أن ذلك يخص الشرق الأوسط، فإن الاقتراب الألماني الروسي لافت للنظر، فهو يحدث رغم الخلاف على أوكرانيا وجورجيا، وحادث الاغتيال المتهمة فيه موسكو في بريطانيا، بل وفرض العقوبات عليها من قبل حلف الأطلنطي والاتحاد الأوروبي. وهل هي لحظة مؤقتة استلزمتها الأوضاع السورية وحالة اللاجئين السوريين للتقارب الروسي الألماني أم أنها حالة جديدة تتحول فيها الأوضاع بعيدا عن الولايات المتحدة التي على أي حال لرئيسها دونالد ترامب موقف سلبي من كل من حلف الأطلنطي والاتحاد الأوروبي؟

كلا المشهدين في شرق آسيا وأوروبا، يرتبط بالمشهد ثالثاً الخاص بالولايات المتحدة ذاتها حيث أكتب الآن، وفيها استعرت الحرب الإعلامية بين ترامب والإعلام، وفي العموم بين الجمهوريين والديمقراطيين، وكل ما احتاجته هذه الحرب الوقود الذي يغذيها من أول تعيين القاضي "كافانو" في المحكمة الدستورية العليا، إلى حادثة مقتل صحافي سعودي، إلى قيام "إرهابي" أميركي اللحم والدم بتوجيه رسائل بمفرقعات "تهدد الحياة" إلى ١٢ شخصية أميركية حدث أنهم ديمقراطيون، وحتى قيام "إرهابي" آخر بالدخول إلى معبد يهودي وقتل ١١ شخصاً وجرح ستة منهم أربعة من الشرطة في حدث هو الأول في التاريخ. كل ذلك يحدث بينما تتحرك قافلة فيها عشرات الألوف من المهاجرين اللاتينيين إلى الحدود الأميركية، ومن أجل ذلك أرسل الرئيس ترامب قواته المسلحة لمنعهم من الدخول وفي نفس الوقت قام بإلغاء معاهدة الصواريخ متوسطة المدى التي وقعها سابقه رونالد ريغان مع الاتحاد السوفياتي. ما يحدث في الداخل الأميركي لا يمكن عزله عن موقف الإدارة الأميركية من السياسة الخارجية في عمومها والذي قلت فيه أهمية تحالفات أميركا التقليدية، وتحت مظلة "أميركا أولاً" باتت الدعوة جوهرها العزلة والانسحاب من قيادة العالم اللهم إلا من محاولات عقد صفقات مربحة اقتصاديا. هذه النزعة لم تعد أمراً أميركيا بقدر ما باتت أمراً عالمياً، فظاهرة اليمين "القومي" تختلف عن تلك التي كانت لها نزعة دولية أو عالمية وتتميز بخشونة وأحيانا عدوانية إزاء العالم الخارجي، ولها أصداؤها بين دول كثيرة في العالم. مؤخرا فإن البرازيل انتخبت رئيساً جديداً كانت أول أعماله توجيه التحية للعلم الأميركي، وأنه في سبيله للاقتداء بالرئيس ترامب، والدخول في حلف الأطلنطي والخروج من مجلس الأمم المتحدة لحقوق الإنسان، ونقل السفارة البرازيلية من تل أبيب إلى القدس!

الخلاصة، ربما، أن العالم يتحول تدريجياً إلى عالم ثلاثي القطبية، ولا تزال الولايات المتحدة فيها قوة عظمى بحكم ما لديها من مال وسلاح وتكنولوجيا، وفوق هذا فإنها على الأرجح سوف تقود تجمعات جديدة من الدول التي يحكمها اليمين "القومي". الصين هي النجم الصاعد في سماء العلاقات الدولية، وهي تتحسس خطواتها في مجال العلاقات الدولية، فلا يوجد لديها تعجل لممارسة حقها كدولة عظمى، ولكن لا بأس لديها من أن يجذب نجمها كواكب مثل اليابان، وربما دول أعضاء في تجمع الآسيان. روسيا لا تزال القوة العظمى الثانية في مجال السلاح النووي على الأقل، ولكنها تعوض ضعفها الاقتصادي النسبي بتقدم تكنولوجي في السلاح، ومعه نشاط سياسي وعسكري يتمتع بالجرأة والشجاعة، كما حدث في جورجيا وأوكرانيا وسورية. هي ترغب في أن تكون النجم الأوروبي الجاذب لكواكب أخرى مثل ألمانيا وفرنسا. أرجو ألا يكون ذلك استشفافاً متعجلاً للمستقبل؟!

عن "الشرق الأوسط"

* رئيس مجلس إدارة صحيفة المصري اليوم بالقاهرة، ورئيس مجلس إدارة ومدير المركز الإقليمي للدراسات الإستراتيجية بالقاهرة.

«إذابة الجليد» .. رواية روسية في تأبين الستالينية

بقلم: إبراهيم العريس

في العام ١٩٥٤ وكانت «تجديدات» نيكيتا خروتشيف لم تزل بعد في طي الغيب وإن كان رحيل ستالين في العام السابق قد أوجد ثغرات في جمودية النظام السوفياتي، واعداً بالمزيد خلال السنوات المقبلة، وجد الكاتب الذي كان معروفاً قبل ذلك بأنه الأكبر أهمية والأكثر موهبة بين المثقفين السوفيات المؤيدين النظام، إيليا إهرنبورغ، وجد نفسه من دون مقدمات تقريباً بالنسبة إلى العالم الخارجي، بطلاً في نظر كبار المنشقين وعلى رأسهم الناقدة فريدا فيغودوروفا والكاتب إفيم إيتكند اللذان سيُعرفان بكونهما أول المنشقين وسيدفع كل منهما الثمن على طريقته بعد قليل.

ويعود الفضل في ذلك إلى رواية كان إهرنبورغ قد أصدرها في ذلك العام بالذات هي «إذابة الجليد» التي سيستند إليها المنشقّان في تمردهما الأدبي بوصفها مرجعاً حقيقياً في مجال حرية التعبير ولكونها تعلن نهاية العصر الستاليني في مجال الإبداع.

والحقيقة أن هذه الرواية سوف تعير عنوانها لكل تلك المرحلة التي عاشت فيها الفنون السوفياتية لحظات انفراج رائعة وقد تخلصت من ظل ستالين الثقيل.

ونحن إذا كنا استخدمنا تعبير «دون مقدمات» أول هذا الكلام قد يتعين على القارئ أن يلاحظ كيف ألحقناه بكلمة «تقريباً»، وذلك بالتحديد لأن «إذابة الجليد» لم تأت من العدم، بل كان من الواضح أن إهرنبورغ قد أنجز كتابتها أو التفكير فيها قبل موت ستالين لينتظر اللحظة المناسبة لنشرها واعتبارها أول عمل أدبي يؤرخ لمرحلة ما بعد ستالين.

أما قيمتها فتأتي أيضاً من كون كاتبها كان معروفاً بقربه من النظام وبكونه في حد ذاته سلطة أدبية كبيرة في بلاده.

انطلاقاً من هنا إذا كان في الإمكان تعريف الشاعر والكاتب السوفياتي إيليا إهرنبورغ بعبارة واحدة، فإن من المستحسن لهذه العبارة أن تكون: «هو المعادل الأدبي والفكري لما كانه نيكيتا خروتشيف في المجال السياسي».

فإذا كان خروتشيف قد خلف ستالين ليقيم هذا الأخير من قبره ولا يقعده بتقريره الشهير الذي فضح مثالب الستالينية والخطايا الكبرى التي اقترفت طوال ما يقرب من نصف قرن كانت هي عمر الاتحاد السوفياتي حتى ذلك الحين، فإن إيليا إهرنبورغ كان واحداً من أوائل الكتاب الذين امتشقوا العلم ليبدؤوا عصر إذابة جليد أدبي يشبه عصر إذابة الجليد السياسي الذي بدأه خروتشيف.

والأهم من هذا هو أنه إذا كان خروتشيف قد انتظر ثلاث سنوات فصلت بين موت ستالين والمؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي (١٩٥٦) قبل أن يقدم تقريره الشهير، فإن إهرنبورغ لم ينتظر طويلاً، بل إنه أصدر في ١٩٥٤ أي في العام التالي مباشرة لوفاة ستالين، تلك الرواية التي ستصبح الأشهر بين أعماله، بل مرجعاً يستند إليه كل المنشقين في دفاعهم عن حرية الأدب والفن والتعبير عموماً، أي «إذابة الجليد»، التي افتتحت عصراً جديداً من الأدب السوفياتي وفضحت الفترة السابقة، ثم أعارت اسمها لكل العملية النقدية والنقضية التي نسفت الستالينية من أساسها.

ومع هذا، قد يمكن القول إن الرواية لم تكن ثورية ولا شديدة الجرأة. كانت منطقية في الأقل في استعادتها الروح الروسية، حيث قالت بين أشياء كثيرة قالتها إن الروح الروسية، بغثها وسمينها، لم تختف تحت وطأة الستالينية، حيث كان كثر يؤمنون بذلك الاختفاء، لا سيما مسؤولي اتحاد الكتاب الروس الذين حاربوا الرواية منذ صدورها وقد خافوا أن تخلق تياراً أدبياً يلغي وجودهم في ذاته.

وتتحدث الرواية عن مدينة صناعية سوفياتية صغيرة تعيش حياتها البيروقراطية ويعيش مهندسوها بخاصة - وهم يشكلون الجزء الأكبر من شخصيات الرواية - حياتهم وصراعاتهم الصغيرة فيما الخوف يتأكلهم في كل لحظة وثانية.

لكن تلك الصراعات والأنانيات التي كان يمكن أن تكون ميكانيكية وحزبية، سرعان ما تتكشف في علاقتها بالإنسان الروسي نفسه أكثر مما في علاقتها بالإنسان السوفياتي. وهكذا تستعاد صور الحب/ الشغف المعهود لدى دوستويفسكي أو تولستوي.

وتغزو الأهواء وضروب التطرف التي تملأ آداب القرن التاسع عشر الساحة، إنما من دون ثرثرة زائدة من المؤلف.

كل شيء يبدو هنا أنه استعاد ماضيه، حتى تُختتم الرواية برسالة يبعث بها المهندس سافتشنكو إلى خطيبته وهو في رحلة يقوم بها مع وفد من رفاقه المهندسين إلى باريس، فإذا بتلك الرسالة، ومن خلال الوصف الذي يقدمه سافتشنكو فيها للحياة الباريسية والمقارنات التي يعقدها من دون أن يبدو متعمداً ذلك، إذا بها تقول كل شيء... لا سيما كم أن صمت المبدعين الروس خلال المرحلة الستالينية كان ظلماً لهم وللأدب الروسي ككل، وكيف أن ذلك الصمت غيّب كل ما له علاقة بالروح الروسية الهائجة من جهة وبمتعة الحياة من جهة أخرى.

والحال أن إهرنبورغ كان له، في ما كتبه، من الصدقية ما لم يكن لغيره. وذلك بكل بساطة لأنه لم يكن، أصلاً، من المنشقين، ولا من الذين طاولتهم براثن ستالين وجدانوف أو بوليس بيريا السياسي.

كان بالأحرى ابناً من أبناء النظام ورمزاً من رموزه الأدبية. من هنا، كان له في مكانته ما جعل كل ما قاله عن المرحلة الستالينية، بل عن التاريخ السوفياتي يلقى آذاناً صاغية، ويساهم في تمهيد الأذهان لتقبل ما جاء به خروتشيف بعد عامين.

صحيح أن الرقابة السوفياتية التي تساهلت مع إهرنبورغ طوال ما تبقى من سنوات الخمسين، عادت ومارست قمعاً على بعض أعماله اعتباراً من العام ١٩٦٣، غير أنها لم تتمكن من النيل منه شخصياً، وبالتحديد لأنه كان على الدوام رمزاً كبيراً من رموز الأدب الرسمي.

من هنا، حين رحل إهرنبورغ العام ١٩٦٧، شُيّع كبطل من أبطال الاتحاد السوفياتي واعتبرته الصحافة السوفياتية واحداً من كبار الكتاب السوفيات في القرن العشرين.

والحقيقة أن إخضاع أدب إهرنبورغ وشعره للفحص الدقيق اليوم قد يكون من شأنه أن ينسف هذه الفكرة، لكن هذا لا يمنع من القول إن دوره في الحياة الأدبية والصحافية كان كبيراً، لا سيما خلال عمله مراسلاً حربياً لصحيفة «الازفستيا»، وصحيفة «النجم الأحمر»، حيث كتب، وهو مشارك في الحرب الإسبانية، بعض أبدع التحقيقات عن تلك الحرب.

ولد إهرنبورغ العام ١٨٩١ في مدينة كييف الأوكرانية، لكنه أمضى طفولته في موسكو، ثم أمضى جل شبابه في باريس.

وهو سافر إلى العاصمة الفرنسية بعد أن كان اعتقل في موسكو في ١٩٠٧ بسبب «نشاطات تخريبية» وانتمائه إلى تنظيمات شيوعية.

وفي باريس اختلط الكاتب الشاب بأوساط الثوريين الروس المنفيين، كما اختلط بالأوساط الأدبية التقدمية في باريس، حيث نشر أول أشعاره، كما كتب أولى مقالاته الصحافية.

وهو عاد إلى روسيا في ١٩١٧ إثر انتصار الثورة البولشفية، وساهم في النهضة الأدبية والفكرية، غير أنه سرعان ما شعر بالحنين إلى باريس وحياتها الصاخبة فتوجه إليها في ١٩٢١ كمراسل لصحيفة الدولة الرسمية.

وفي باريس، خاض الكتابة الصحافية والأدبية في وقت واحد، وتابع الحياة الفكرية وساهم في النقاشات الفكرية التي سادت العاصمة الفرنسية حول النظرة إلى الاتحاد السوفياتي، والتي أثارتها كتابات أندريه جيد.

في أواسط الثلاثينيات، توجه إهرنبورغ إلى إسبانيا لتغطية حربها الأهلية، ثم عاد إلى فرنسا، مكللاً بالغار الأدبي لأن كتاباته حول تلك الحرب جعلته بطلاً حقيقياً وأكسبته شهرة ومكانة كبيرتين، لكن بقاءه في فرنسا، هذه المرة، لم يطل، إذ إنه اضطر للعودة إلى موسكو إثر الغزو الألماني لفرنسا.

وفي موسكو، راح من جديد يخوض الكتابة حول الحرب ما جعله يُعتبر واحداً من ألمع الصحافيين السوفيات على الإطلاق.

وفي الوقت ذاته، واصل كتابة الشعر والرواية وبدأت رواياته تنتشر على نطاق واسع.

ويقسم النقاد أعماله عادة إلى ثلاث مراحل: مرحلة الثلاثينيات حين أصدر «زفاف موسكو»، بخاصة «مغامرات خوليو خورونيتو الغريبة»؛ ثم مرحلة ما بعد الحرب الثانية، بالكتابة الروائية السياسية المباشرة وكان من أبرز نتاجاته «سقوط باريس» (١٩٤١) و«العاصفة» (١٩٤٧) و«الأسطول التاسع» (١٩٥١).

أما المرحلة الثالثة فمرحلة إذابة الجليد التي صار فيها سيداً من سادة الأدب الناقد للممارسات الستالينية، وهي الفترة التي بدأها بـ «إزالة الجليد»، وواصل خلالها الكتابة، مستفيداً من مناخات ليبرالية جديدة سادت خلال بدايات العهد الخروتشيفي، وكان من أبرز ما كتبه خلال تلك الفترة نص «النبات والرجال» الذي نشره مسلسلاً في «نوفي مير»، وكان أشبه بسيرة ذاتية له تحدثت عن نصف قرن من تاريخ سوفياتي كان من الواضح أن إهرنبورغ لا ينظر إليه بعين الرضا.

عن "الحياة" اللندنية